أشرق الأمل يا فلسطين!

للأستاذ على حيدر الركابى

لقد قضيت عمرى تائهاً فى صحراء الحياة ، أرى العواصف الهوجاء تهب حولى حتى تكاد تطمرنى فأسير وأنا واقف فى أرضى، وأرنو إلى الأفق البعيد أنشد فيه خيال واحة أستظل بظلالها وأرتوى بمياهها ، فاذا بالأمل قد خاب ، وإذا بالسراب قد تلاشى وانكشف عن قفار تمتد إلى اللانهاية لا أدرى إلى أين المصير

وقد قضيت عمرى غريقاً فى بحر الحياة اللجب ، تقاذفتنى أمواجه الملتجة حتى كادت، تغرقنى فكنت لا أتقدم خطوة نحو شاطئ النجاة إلا أبعدتنى عنه خطوات؛ وكانت الأمواج ترفعنى تارة فيخيل إلى أنى قد بلغت مثلى الأسمى؛ ثم تسخر بى وتضحك ملء شدقيها وتفتح فاها المخيف وتجذبنى إلى أعماق جوفها وكأنها تريد ابتلاعى ، فأشعر أن قد دنا أجلى وأصيح وأستغيث ولكن لا ملبى لندائى ولا مغيث

وقد قضيت عمرى هائماً فى ليل الحياة المظلم وقد خيم سواده على كل مخلوق فحجب عنى الحقيقة، وضلات الطريق ورحت أخترق حجب الظلام بمصرى علّه يقع على قبس من نور ولو ضئيلا أهتدى به . ولكن الجهد كاد يفقد عينى بصرها فسرت وأنا كالأعمى أتخبط فى دياجير الظلام بلا هدف ولا أمل

وقد صعدت قمة الهرم الكبير ، وأجلت الطرف حولى ، ثم انحدرت إلى الوادى السعيد فلم أعثر على منقذى ، بل عثرت على نفوس فقيرة حقيرة قد أضعفتها الجيوب المنتفخة ، وضربت حولها أسواراً من الذهب الوهاج، وأقامت لها داخل هذه الأسوار عرشاً من الناس فاستوت عليها قانعة شاكرة ، وعثرت إلى جانب هذه النفوس الفقيرة الحقيرة على نفوس عظيمة كبيرة قد تحتها يد البؤس والشقاء وحصرتها فى أسوار من الاملاق، فلما عجزت عن تحطيمها أو اجتيازها خضعت للأمر الواقع واستسلمت للأوهام تستمد منها حرية تستعيض بها عن حرية الحقيقة . فبكيت من النفوس الفقيرة وبكيت على النفوس الغنية وغادرت الوادى السعيد وهرمه العظيم بقلب مفجوع وأمل خائب

وقد تبعت طريق بنى اسرائيل لما خرجوا من مصر فقطعت صحراء التيه ثم وقفت على جبل الطور وتوجهت بناظرى إلى الشرق فنفذ بى من أعماق الغور الأعظم إلى أفق أسود قاتم تتدلى فى سمائه الغيوم الداكنة، ولاح لى شعاع من ذلك الأفق الممتد وراء الأردن فرقصت طرباً وخلت أنه النور الذى سيهدينى ، ولكنى ما لبثت أن أدركت أنه برق بدا لحظة ثم اختفى وتلته رعود قاصفة تنذر بدنو العاصفة ، فحولت بصرى عن الشرق وأخذت أجيله فى الجهات الأخرى عساى أحظى بضالتى المنشودة . إلا أنى ما رأيت سوى القتلى فى كل مكان قد صُرع كل واحد منهم بسهام ثلاثة خرجت من أقواس لثلاثة صيادين : أولهم سوبها بنفسه معتمداً على مهارته معتزاً . بقوته والثانى ضعيف لم يقو على شد القوس فاستأجر بدراهمه الكثيرة من يقوم مقامه من الرماة الماهرين ؛ أما الثالث فقد كان يسعى ويجد حتى لا يخطئ قلب أخيه المغدور ، يفعل ذلك طمعاً فى اكتساب رضاء الأول والحصول على دراهم الثانى ، فمزقت صدري للسهام المتناثرة كى يصمينى أحدها فيضع حداً لحياة قد فقدت معناها وضلت هدفها إلا أن السهام أخطأتنى ولم تفرج كربتى فغادرت الطور شقياً هائماً على وجهى

وقد انتقلت إلى جنة الله على الأرض وأطلقت روحى فى الهواء فصاحت الطير وحلقت معه فى الفضاء الواسع بين الجبل الأشم والسهل الخصيب، تغرد معه على الأغصان ، وتصغى معه إلى قيثارة الغدير . ولما عادت هذه الروح إلى جسدى أنبأتنى بما فهمته من الطير والغصن والغدير ؛ فقالت : إن الطير تبكى ولا تغرد ، وان الغصن قد قوسته الأحزان، وأن الغدير يرسل زفرة الكليم، وذلك لأن هذه المخلوقات قد أرسلها خالقها هدية إلى قوم لم يقدروا قيمتها ولم يفهموا معناها ، إذ أنهم استعاضوا عن الهدى وهديته بأصنام من صنعهم شيدوا لها الهياكل والمعابد وراحوا يحرقون أمامها البخور ويقدمون لها الضحايا ؛ فلو عاد محمد صلى الله عليه وسلم نفسه لتحطيمها للاقى منهم ما لاقاه من قريش . فقلت : يالمصيبة، وغادرت الديار غير آسف وتوجهت نحو الصحراء الشرقية يدفعنى الألم مما خلفت ورائى والأمل بما استقبلت أمامى .

وقد جلست فى قارب صغير وهمست فى أذن النهر العظيم

قائلا : « إنك تحمل فى طياتك تجارب آلاف السنين ، وأخبار مئات الأقوام، وقد سَرَّ فرعك بأقصى البلاد وأدناها فبالله حدثنى » فلم أحظ منه بجواب لأنه كان نائماً فرفعت صوتى وكررت الطلب ففتح إحدى عينيه ثم الأخرى ثم تثاءب وأعقب ذلك ضحكة اهتز لها صدره حتى كاد قاربى ينقلب ثم قال « إنى لمرتاح ، وإنى لمسرور كما ترى . فقد مرت عشرات السنين وأنا أشقُّ طريقى إلى البحر بكل حرية فلا يعترضنى أحد ولا يُنقص من مادتى شيئاً » فثرت على هذا الكسل وصحت: « ولكن هذه الحرية المزعومة إن أرضتك فقد أشقت التربة الصالحة وقلبتها صحراء قاحلة حتى مدَّ الجوع يده إلى ألف ألف بيت » . فضحك مرة أخرى، وقال : « رويدك يا صاح ! وما شأنى أنا؟ ولِمَ تلومنى ؟ نعم أنا مرتاح إلى هذه النتيجة إلا أنى لم أكن سبباً فى وقوعها ... » ثم أغمض عينيه وعاد إلى سباته العميق وتركنى وحيداً وسط الخضم أنادى فلا أجد من يلبى وأصيح فلا أسمع سوى صدى صيحتى الضائعة .

ولما خاب كل أمل لى فى النجاة وأيقنت أنى سأبقى تائهاً فى الصحراء بلا دليل ، وغارقاً فى اللجة بلا منقذ ، رضالاً فى الظلام بلا نور هادى ، ولما تسرب اليأس إلى قلبى فاذا بى أرى العاصفة قد سكنت ، وإذا بيد بيضاء تمتد لانتشالى ، وإذا بالشمس الضاحكة تضىء ما حولى، وإذا بحياتى قد ملئ فراغها بالأمل لأن نفسى قد اهتدت أخيراً إلى الطريق الذى يوصلها إلى الغاية . فمن هو هذا المحسن العظيم الذى فعل ما عجز عنه غيره ؟ من هو هذا الانسان الذى استطاع أن ينفخ فى قلبى القانط روح الأمل يبنى الانسان ؟ وما الذى قام به هذا الشخص حتى أعاد لنفسى شيئاً من ثقتها بالبشر ؟

إنه طالب عراقى فقير أصغر منى سناً وأقل علماً، ولكنه مع ذلك قد لقننى — ودرسى الوحيد وأنا الأستاذ — درساً بليغاً فى الخلق السامى والتضحية النادرة .

تعاقب خطباء المدرسة على المنبر فهزوه هزا وبُحَّت حناجرهم وكلهم ينادى « فلسطين ! فلسطين ! » واحمرت الأكف من التصفيق وهى تقول بلغتها العجيبة « لبيك ! لبيك ! » ثم انقضى دور الدعاية والكلام وحل محله دور العمل والاغاثة الفعلية فاشتد الحماس وجاء الطلاب الريفيون الفقراء بالمال إعانة لمنكوبى فلسطين وبذلوا بذلاً وقف دونه من هو أوفر منهم مالاً . وفى وسط هذا الحشد الثائر جلس الطالب حكمة عبد العزيز يفكر ؛ فان قلبه مملوء إيماناً بالله ونبيه أولا ، ثم بلزوم إعانة فلسطين وهو لا يملك فلساً فما العمل ؟ ولكنه تردَّد لحظة لا أكثر اندفع على أثرها إلى المنبر وأخذ ينزع ملابسه حتى عرى جسده إلا مما يستر عورته وهو يعلن بصوت خرج من أعماق قلبه أنه لا يملك ما يتبرع به غير هذه الملابس (وأنا أعلم — والله يشهد — أنه معوز) فليتبع على قدمها وليخصص ثمنها لاغاثة سكان الأراضى المقدسة . وما كاد يتم كلامه حتى دوى المكان بالتصفيق واهتزت الجدران بالهتاف الى الل المتواصل . وعرضت ملابسه البيض فتنافس الجميع فى شرائها كل يريد أن ينفرد بشرف الحصول عليها حتى بلغت قيمتها حداً عظيما . وأراد الشارى أن يعيد الملابس إلى صاحبها بعد أن تم المقصد من تقديمها ولكن هذا أبى ذلك بشدة واعتبر هذا العمل إهانة له . وبعد ملابس حكمة أمطر الطلاب المنبر وابل من أشيائهم الخاصة طالبين بيعها فهذا قدم قلمه السيال وذاك محفظته وثالث ساعته ورابع نظارته وهلم جرا .

هذا ما قام به طالب عراقى فقير من الأرياف ، وهو عمل قد يعتبره بعض الناس عادياً، ولكن المتعمق لا يسعه إلا أن يعجب به ويمجده ويبنى عليه الآمال العظام لأننا نعيش الآن فى عصر شمل فيه الانحلال كل شىء حتى بات العمل الصالح نادراً يجب التمسك به وإعلانه إلى الملأ عند العثور عليه .

فاهنأ بعيشك ياحكمة فان أمة فيها شاب مثلك لن يكتب لها أن تموت، وإن شباباً فيه روح مثل روحك هو شعب حى سيسود رغم كيد العدوين : الأجنبى المستعمر والوطنى الخائن . سر فى طريقك على بركات الله ولا تجزع، فان كنت قليل المال أو معدومه فانك غنى النفس ، وقد استطعت بهذا الغنى أن تقدم لفلسطين مساعدة مادية ، وأن تضرب للشباب مثلاً سامياً فى التضحية ، كما أعدت إلى اليائسين أمثالى ثقتهم بشباب هذا الجيل — وكل ذلك وقف دون تحقيقه من هم أغنى منك مالا لأنهم أصغر منك قلباً وأحقر نفساً . ثم مرتاح الفؤاد ياحكمة فان قصتك ستبقى خالدة على الدهر يستنير بها الشباب ويتخذونها شعاراً حياً يرمز إلى كل ما فى كلمة (جهاد) من معنى .

وأنت يافلسطين ، ماذا أقول وكل حرف من اسمك المطهر يفجر فى قلبى نبعاً جديداً من الأسى ؟ أأرثى لحظك المنكود أم أرثى أرضك التى لم تراعَ حرمة لقدسيتها ؟ أم أنوح على مئات الضحايا تقديمها كل فجر على مذبح الشرف والحرية ؟ أم هل أشق الفضاء بصيحات أندب فيها قراك الخربة ومنازلك المتهدمة وحقلك المسلوب ؟ كلا والله ليس البكاء والعويل بمنقذك .

أي أندلسنا الجديدة: إن أبناء الأندلس القديمة لم يبخلوا بالندب والنواح والاستغاثة والصياح ، ولكنهم مع ذلك خسروا بلادهم وأخرجوا عن ديتهم لأنهم اكتفوا بآهات الألم واستسلموا لليأس وسلموا قيادهم من يجهل معنى الاخلاص . أما أنت فقد خرجت الآن من دور البكاء والاستسلام والتسليم ، وما عادت تجوز عليك خدع المتزعمين من أبنائك طلاب السلطة والمال ، وقد دخلت أخيراً فى دور الجهاد المبارك الذى أعلنه المخلصون من أبنائك البررة — أبناء الشعب السذج ذوى الايمان القوى والعقيدة الراسخة والأرض المسلوبة .

فجاهدى وناضلى يافلسطين واعلمى أنك قطعة ثمينة من الوطن الأكبر الذى لا يزال فيه بقية من الخلق الذى كان يتحلى به فتيان محمد (ص) الأولين . وهذه البقية الباقية إن كانت ضئيلة اليوم فلن تبقى ضئيلة إلى الأبد فانها والله لكالجمرة التى خلفتها النيران فى الرماد وظن الناس أنها منطفئة ، حتى إذا ماهبت العاصفة أطارت الرماد وعرّت الجمرة ونفخت فيها الحياة فاحمرت ثم اندلعت منها ألسنة اللهيب واتصلت بما حولها وتوسعت دائرة الاشتعال حتى أصبح إخادها فى حكم المستحيل . وها هى ذى عواصف الاضطهاد والارهاق تكتنفنا من كل جانب وهى كفيلة باذكاء نار الحمية فينا وإعادة ذلك العهد الذى دُكت فيه عروش الأكاسرة والقياصرة على يد فئة قليلة يقودها بدوى أمى خرج من قلب الصحراء المقفرة .

وهذا الأمل الجديد الذى أبشرك به يافلسطين لقد ولده فى قلبى عمل حكمة أحد فتيان محمد (ص) . فأرسلى ناظريك إلى ما وراء الصحراء وترقبى — مثلى — خروج القائد المنتظر فى بلاد (حكمة) ومن جيل حكمة .

« بغداد — دار الدراسات الريفية » علي هيدر الراوي

فى مصر الاسلامية

تنازع البقاء بين العلوية والعثمانية

للدكتور حسن إبراهيم حسن

الأستاذ بكلية الآداب

كان من العوامل الخارجية التى نازعت سلطان العلويين فى مصر وجود حزب الأمويين فى الشام ، وعلى رأسه معاوية ابن أبى سفيان الذى أخذ يعمل على سلخ مصر من على بن أبى طالب . وسار معاوية إلى هذه البلاد ونزل بسلمشت من كورة عين شمس (فى شوال ٣٦ هـ) ، فخرج إليه ابن أبى حذيفة وأنصاره ليمنعوه ، فبعث إليه معاوية يخبره أنه لا يريد قتالاً وإنما يريد أن يدفع إليه رءوس قتلة عثمان ، فأبى ذلك عليه ، فبعث معاوية يطلب إليه تبادل الرهائن والودائع ، كى يضمنوا جميعاً أن يكفّ الفريقان عن الحرب ، فقبل ذلك ابن أبى حذيفة .

ولعل ابن أبى حذيفة لم يفطن إلى ما كان يرمى إليه معاوية ، وأن هذا الطلب لم يكن فى حقيقة الأمر إلا مكيدة حاك شراكها دهاؤه ، فاستخلف على مصر رجلا من أنصاره ، هو الحكم بن الصلت ، وخرج فى الرهن هو وغيره من قتلة عثمان ، ثم سجنهم معاوية فى « لدّ » من أرض فلسطين ، وسار إلى دمشق ، فهربوا من سجنهم ، إلا واحداً أبى الفرار ، فتعقبهم عامل معاوية وقتلهم ، وكان من بين القتلى محمد بن أبى حذيفة . (ذو الحجة ٣٦ هـ) وذلك بعد قتل عثمان بسنة كاملة [1]

ولسنا ندرى كيف يعلل خروج ابن أبى حذيفة ، وهو رأس شيعة علىّ فى مصر وغيره من أنصار العلويين وزجه بنفسه فى مضامير هذا الرهن . بيد أن المصدر التاريخى الذى نعوّل عليه فى هذه الناحية هو كتاب « الولاة » للكندى (٣٥٠ هـ) أقدم مؤرخى مصر بعد ابن عبد الحكم (وعنه أخذ غيره من المؤرخين المتأخرين ، وأهمهم ابن دقاق والمقريزى وأبو المحاسن والسيوطى) لم يذكر لنا السبب الذى حدا بابن أبى حذيفة وأنصاره إلى الذهاب فى الرهن ، بل ولم تذكر المراجع كلمة واحدة عن رجال معاوية الذين دخلوا فى هذا الرهن ، الذى لم

(١) الولاة للكندى ص ١٩ — ٢٠ والخطط للمقريزى ج ٢ ص ٣٣٦